# الفصل الرابع

# معتقل الدين.. وفضاء الغريزة!
# (النسوية المحلية)

## -١-

في إطار الدعاية المحمومة ضد الإسلام وكل ما يتعلق به أو ينتسب إليه؛ تبذل الجهات المناوئة ما تستطيع من جهد لتشويه صورته النقية، ومحاسبته بسلوك بعض أتباعه، والترحيب بغيره من المعتقدات والتسامح معها بل والتقرب إليها بالغدو والآصال، حيث صار الإسلام في الساحة الدولية منبوذًا من القوى الكبرى التي تملك المنح والمنع والثواب والعقاب، وأضحي من أتباعها مكروهًا ومرفوضًا..

وفي المجال الأدبي - كما سبقت الإشارة - صارت الرواية مجالًا حيويًا خصبًا، لتوجيه الاتهام والرفض، والتشويه والتلويث، بطريقة ناعمة يفرضها الحكي وتتابع الأحداث، وبناء الحبكة القصصية المشوّقة، فتمضي الأفكار في خفة ورشاقة، وتتسلّل الرؤى في هدوء وسلاسة، ويتشبع الوجدان بما تسلكه الشخصيات من مواقف وما يصدر عنها من رؤى وأقوال.

### هدف استراتيجي

في السنوات الأخيرة التي أعقبت الربيع العربي وما واجهه من ثورة مضادة، كان الإسلام هدفًا استراتيجيًا للجهات المناوئة، التي رأت أن الدافع الإسلامي كان من وراء الربيع العربي وثوراته المرتبطة بالمساجد، وتجب مواجهته والقضاء على تأثيره؛ لأن ذلك يحقق للثورة المضادة مكاسب كبيرة وعظيمة تضمن لها النجاح والبقاء والاستمرار، وحرمان

شعوب الأمة من الحرية والكرامة والأمل ، لم تتردد الثورة المضادة في اللجوء إلى الدم والقمع والقهر وفتح أبواب السجون للأحرار، وبناء المزيد منها ليسكنها الشرفاء والنبلاء، يصاحب هذا كذب وتشهير بطلاب الحرية عبر ما يسمّى الأذرع الإعلامية: الفضائيات والأرضيات والصحف والندوات والمحاضرات والمؤتمرات والمسرحيات والأفلام والمسلسلات التلفزيونية أو الدراما عمومًا، وقد حققت الثورة المضادة في هذا السياق نجاحًا ملحوظًا، حيث صار المسلم الثائر في عرف هذه الأذرع إرهابيًا وسفاحًا وبلطجيًا وقاتلًا بشع المنظر والسلوك، ويعيش فصامًا قبيحًا بين الواقع وبين أفكاره وتصوراته وممارساته، وكأنه لم يبق من المسلمين رجل صالح واحد، اللهم إلا الطغاة وجلادو الشعوب ولصوصها الكبار والمنافقون الأفّاقون الكذّابون الذين يساعدونهم على الظلم والعدوان!

## مباركة وترحيب

ومع أن الفنون التي تعمل على خدمة الثورة المضادة ومنها الرواية، لا تراعي عادة الأصول الفنية والجمالية التي ينبغي الانطلاق منها لتقديم فن مقنع، فإنها تجد مباركة من الصحف ومنابر التعبير الأخرى وترحيبًا من منصات النشر والنقد التابعة للسلطات القمعية والموالية للثورة المضادة، ولو ضربت عرض الحائط بالقواعد الأدبية ومنطق العلاقات الفنية.

واقع الحال أن الرواية المضادة للفن وللحرية معًا كما أشرنا من قبل، لا تعبأ باللغة بناء وصياغة ، وتقع في أسر الاستخدام الخاطئ لبعض المصطلحات والأوصاف، وتخلط بين اللغة الأدبية الفصحى وبين العامية في تمازج ركيك ودمج قبيح لا يرقى بالذائقة الأدبية إلى معارج الجمال

الفني والأدبي، ثم إنها لا تقيم اعتبارًا للبناء الفني الذي يكشف عن مهارة الكاتب في جذب القارئ وشدّه إلى عالم من الابتكار والمتعة الفنية.

ومع ذلك هناك من يحتفي بهذا النوع من الكتابة، ويشيد به ويقيم له مهارج متنوعة من أجل الدعاية والتضليل، فما أكثر المقالات النقدية والدراسات الأكاديمية التي تدور حول أعمال تفتقر إلى العناصر الأولية للكتابة! مثل الإملاء والنحو والصرف وغيرها، وما أكثر الأخبار التي تنشر والمقالات التي تدبج، وحفلات التوقيع وندوات التعريف التي تقام، ولقاءات القراءة والمناقشة التي تعقد في أرفع الأمكنة وأشهرها، حول هذه الأعمال الرديئة! بينما هناك أعمال جيدة وممتازة لا تحظى بشيء من ذلك ولو بنشر خبر في سطرين على عمود بصحيفة سيارة، يساعد على ذلك الوعي الأدبي الذي هبط إلى درك غير مسبوق، وانهيار التعليم الذي جعل المشهد الثقافي في وضع سقيم!

## -٢-
# نموذج وأد الحرية

معنا الآن نموذج من الروايات التي تشارك في وأد الحرية وخدمة القمع والطغيان ونشر العنصرية الفاشية، وتتحرك من خلال ما يسمّى بالنسوية التي تجتاح العالم العربي، وتروج لها بعض الكاتبات، حيث يطرحن مظلومية المرأة، وقد احتفت بها أجهزة الدعاية القمعية وطبلت لها وأقامت حفلات التواقيع والدعاية، هذا النموذج هو رواية "جواري العشق" لكاتبة اسمها رشا سمير(ط ١٠، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧م). يفاخر الناشر على الغلاف بالطبعة العاشرة، وكانت الطبعة الأولى في عام ٢٠١٤، ومن الطريف أن يضع الناشر التاريخ الهجري في بعض الطبعات مقابلًا للتاريخ الميلادي( الطبعة التاسعة رجب ١٤٣٧هـ، والطبعة العاشرة جماد أول ١٤٣٨هـ، والصواب جمادى الأولى). مع أن الرواية ضمنيًا تخاصم هذا التاريخ الهجري ودلالاته، وتراه قيدا على الحرية والأحرار، كما يكشف السياق الروائي.

رواية "جواري العشق" لا تنحاز إلى حرية الإنسان ونضاله ضد قوى التسلط والطغيان التي تمارسها حكومات قاهرة لا تبني مدنية ولا تقيم حضارة، وهمها الأول والأخير هو القمع والقتل خارج القانون، وتحويل الوطن إلى سجن كبير كي يجلس قادتها على كراسيهم الوثيرة في أمان، إنها رواية تتحدّث عن حرية متخيلة لامرأة تعيش في غيابات الوهم والبحث عن رجل تجد لديه الحضن الدافئ والمتعة الذاتية، وتعتقد

أن حريتها تتحقق في فضاء الغريزة لا معتقل الدين، فهذا غاية المراد من رب العباد، ولا شأن للرواية بما وراء الحرية الشخصية النسوية.

## تحرير الجواري

ومع ذلك تجد الدكتور صلاح فضل، يكتب مشيدًا بها ومقرظًا تحت عنوان: (رشا سمير تحرر «جواري العشق»)، ويقرر أن الكاتبة مسكونة بشيطانين رائعين، أولهما: شيطان الشعر الذى يتفجر في سطور ذات مستوى لغوى رفيع، ولحظات ذات نبض حيوي دافق، وحبكة درامية محكمة، والثاني: يتمثّل في الوعى الحاد بوضع المرأة وافتقادها للحرية منذ العصور القديمة وانطلاق طاقاتها المبدعة بقدر نصيبها من الحرية في العصور المحدثة، وقد طغى عليها هذا الشيطان الأخير بقوة عارمة في «جواري العشق» حتى أغواها بأن تدمج روايتين بديعتين في كيان واحد، وتربط بينهما بخيط حريري ناعم وعنوان مجازي جذاب، لتعبر عن إيمانها العميق بأولوية قضية تحرير المرأة روحًا وجسدًا ووجدانًا حتى تفرض إرادتها على المجتمع وتقيم التوازن الدقيق بين مقتضيات الحرية من جانب وضرورة تطويع العادات والتقاليد وتحريرها من جانب آخر، وصولاً إلى جوهر الصلابة الأخلاقية المبتغاة.( المصري اليوم١٢/ ١١/ ٢٠١٥م).

وكما سنرى فهذان الشيطانان لا يسكنان رواية الجواري، ولكن يسكنان روايات أخرى أكثر نضجًا ووعيًا وإدراكًا! ..

## فضاء الغريزة

رشا سمير كما تعرّف نفسها على الغلاف الأخير من الرواية، طبيبة أسنان، تمارس الكتابة الصحفية لدى جريدة "الفجر" التي يقودها

الصحفي عادل حمودة ؛ وهو من الأذرع الإعلامية التي تعادي الحرية، وتسوّغ الاستبداد، ويعبر عما تريده بعض الجهات من حرب ضد الدين والأخلاق والحرية الحقيقية، ويرى أن المرأة يجب أن تعيش في فضاء الغريزة متأثرًا بالمراحل الأولى للشاعر السوري الراحل نزار قباني حيث كان يلهو بجسد المرأة في أشعاره، انطلاقًا من فكرة تحريرها من قيود الرجعية والتخلف، ناسيًا حرية الرجال أو حرية الشعوب التي تقبض عليها طغمة من الطغاة لا يعترفون إلا بشعوب من العبيد يسمعون ويطيعون!

والمفارقة أن الكاتبة تسعى إلى تقليد عادل حمودة في أسلوبه الذي يقلّد فيه أستاذه نزار قباني، ولكن هيهات بين المقلد الأول والمقلد الثاني، وبين الأصل في أسلوبه الشاعري التلقائي أو العفوي، فالتقليد افتعال وتكلف، وتعبير عن ضحالة موهبة!

ومن الطبيعي أن يكون التقليد الأخطر ليس لأسلوب عادل حمودة الذي يلعب على جسد المرأة، ولكن في منهجه المناوئ للإسلام والحركة الإسلامية، والموالي للقمع والاستبداد، فمقالات رشا سمير الأسبوعية في جريدة "الفجر" تشي بذلك التقليد الأخطر، وحرصها على أن تكون في ركب السلطة الاستبدادية القمعية، وتبرير جرائمها وممارساتها أو التهوين من شأنها، ولابأس أن يكون هناك بعض النضال في القضايا البسيطة التي لا تسبب متاعب أو مصاعب، وهو ما يفعله عادل حمودة في مقالاته النضالية الهامشية ضد السلطة، والنضالية الأساسية ضد الإسلام والمسلمين، ويستطيع القارئ أن يرجع إليها متى شاء.

## التصوف السلبي

تتفاعل رشا سمير مع النماذج المشابهة لها من الكتّاب في مصر والعالم العربي، وتردّد مقولاتهم وأفكارهم وخاصة ما يتعلق بالتصوف السلبي بوصفه الصورة المثلى للإسلام كما تتبدّى في مقولات ابن عربي وأشباهه، مثل الحلول ووحدة الوجود، وهو اتجاه عالمي يلقى ترويجًا كبيرًا، بوصفه استسلامًا بديلًا عن الإسلام الذي يدافع عن الأوطان والأعراض والحريات.

تخبرنا رشا سمير أنها كتبت مجموعة من الأعمال القصصية الأخرى: بنات في حكايات، دويتو، سألقاك هناك، حب خلف المشربية، معبد الحب، يعنى إيه راجل... وهي أعمال لا تتجاوز وضعية المرأة المأزومة المظلومة ولا علاقة لها بأزمة المجتمع ومظلوميته تحت حكم الطغاة الذين لا يبالون بمعاناته وآلامه وقيوده، بل يزيدونه عناء وألما وقمعا ، وليتها تعرض لأزمة المرأة ومظلوميتها عرضًا حقيقيًا منصفًا، ولكنها تعرض الأسطوانة المشروخة التي تتردّد في أرجاء الوطن العربي منذ قرن أو يزيد ويروّج لها الغرب واليهود وأتباعهم في البلاد الإسلامية، إنها تقدّم المرأة التي يغتالها الرجل المتوحش ويسلبها إرادتها وحريتها؛ فتعيش جارية لا قيمة لها تخدمه وتنفذ إرادته وتلبّي مطالبه!

## نوع آخر من النساء

لا تلتفت الكاتبة وأمثالها إلى نوع آخر من النساء يحقق تفوقًا في مجالات العلم والعمل، والسعادة في البيت ومع الزوج والأسرة، وتنهض في سياق دينها وعقيدتها بما يجعلها امرأة مسلمة صالحة منتجة ومبدعة، هل أذكّرها مثلًا ببعض من تحدثت عنهن الصحف قريبًا مثل بنت الشاطئ أو نعمات أحمد فؤاد أو فاطمة محجوب أو غيرهن؟

وأيضًا لا تلتفت الكاتبة وأمثالها إلى المرأة المتجبرة التي تظن أنها تملّكت الرجل فتمارس معه وعليه أشكالًا من الطغيان والجبروت، وخاصة إذا كان بينهما أطفال أو أصابه عارض من الفقر أو المرض أو تغيّر الحال، فتكشف عن وحشية تتضاءل إلى جانبها وحشية الضواري في الغابة حين تحوّل حياة الرجل إلى جحيم لا يطاق!

إننا أمام نمط من الكاتبات يسعى لتحويل العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة إلى صراع أبدي لا بد أن ينتهي بقهر الرجل وتدميره؛ لتشفي غليلها وتنتصر عليه.

## - ٣-
# ثمانية قرون

تمتد رواية جواري العشق لرشا سمير على مساحة زمنية تاريخية واسعة تقرب من ثمانية قرون، تبدأ من عصر المماليك حتى الربيع العربي، ويمكن تقسيم الزمن الروائي إلى قسمين رئيسين، الأول: منذ العصر المملوكي حتى منتصف القرن العشرين، والآخر: من منتصف هذا القرن حتى الآن، حيث نعيش مع أسرة تمثل أربعة أجيال: الأم الابنة والحفيدة وابنتها. ويختص القسم الأول بحياة المرأة الجذر أو الجدة العليا وهو أكثر تماسكًا وأقرب إلى منطق الفن من القسم الآخر الذي تتوالى فيه حكايات النسوة، ويربط الزمن التاريخي بين القسمين صندوق متوارث تكتب فيه كل امرأة عن مشاعرها وعواطفها وما جرى لها، وتورثه لمن تنجب من البنات بالتتابع، وتشكّل حلقات تاريخية عن حرية المرأة الجارية أو المسترقة للرجل، ويبدو فيها أن المرأة الجذر كانت أكثر صلابة وحرصًا على الحرية وأكثر تغليبًا للعقل على العاطفة.

ويتطابق الزمن الروائي مع الزمن التاريخي إلى حد كبير، مع نوع من الاختزال والقفزات إلى الأمام، وفي أحيان نادرة عودة إلى الخلف من خلال التذكار والاسترجاع أو تيار الوعي، ولكنه يندفع إلى الأمام باستمرار ليحكي قصة كل امرأة على حدة وما جرى لها بحثًا عما تسمّيه الحرية وإثبات الوجود ومواجهة ما يقابلها من صعوبات ومتاعب.

## مصدر الجواري

أما المكان الذي تدور فيه الأحداث فهو يمتد من بلاد الكرج أو ما يعرف الآن بجورجيا إلى القاهرة والإسكندرية والسويد، بلاد الكرج مصدر الجواري والعبيد الذين يبيعهم أهلوهم ببعض المال إلى تجار الرقيق أو النخاسين ليضمنوا لهم حياة أفضل من حياة الفقر المدقع التي يعيشون فيها ( لم تشر الرواية إلى المصدر الأهم للعبيد وهو الحروب أو ما تقوم به عصابات خطف الأطفال في وسط آسيا لحساب النخاسة أو تجار الرقيق). وكانت القاهرة تستقبل هؤلاء الأطفال في بيوت السلاطين والأمراء وتتولى تربية الذكور عسكريًا ليكونوا مقاتلين أشداء ضد أعدائهم وخدمة السلطنة في المجالات المختلفة، وتعنى بالإناث ليكنّ ضمن حريم السلطان، يقدمن المتعة والتسلية وخدمة القصور.

وقد ولدت الجارية (الجدة الأعلى لنساء القرن العشرين)، واسمها قمر في بلاد الكرج، ونقلت إلى القاهرة، لتؤسس جذرًا ينتج سلسلة من النساء عاشوا حتى أيامنا. والكرج مصدر للعديد من العائلات المشهورة في مصر، التي استوطنت في محافظات عديدة، وما زالت لهم ملامح هذه البلاد التي جاءوا منها، وربما بعض عاداتهم وتقاليدهم.

أما القاهرة فهي منشأ البنات اللاتي تناسلن وتمصرن منذ الجارية الأولى قمر حتى الآن، وإن كان تمصيرهن أمرًا طبيعيًا بحكم اختلاط الدماء ومرور الزمان، والإسكندرية مجال ممتد من القاهرة بصورة ما، وإن كانت تمثل في مراحلها المختلفة نوعًا من اختلاط الجنسيات البشرية العالمية (تسمّى الكوزموبوليتة)، ولكنها في جانبها الأساسي تمثل المكان الذي يتنسم فيه الناس نسائم الراحة والاستجمام بحكم وجود البحر،

والطبيعة الجغرافية والسكانية التي تجعلها أفضل تنظيمًا وتخطيطًا، وأقل صخبًا وأهدأ ضجيجًا من القاهرة، وأبعد عن أماكن الإثارة والأحزان.

## تناقض سردي

وتبدو الأماكن المحدودة والضيقة موضع الحركة والأحداث المهمة في النص متناقضة مع السرد العام الذي لا يتناغم معها، فحيّ السيدة زينب مثلًا يتحوّل إلى شيء آخر مختلف عن تاريخه وجغرافيته، ويبدو في اتجاه معاكس لما يريد النص أن يؤسسه، تتحدث مهشيد عن الحي العتيق فتقول:

"السيدة زينب.. حي عبق الأديان.. حي مسجد السيدة زينب.. وبيت السناري..

وتساءلت في نفسي، كيف انتقل هذا الحي من عصر سلاطين المماليك بمهاراتهم الفنية والأدبية إلى قبضة حسن البنا ورجاله ؟ فالرجل بدأ دعوته من هذا المكان ليصبح له ولجماعته حصنًا وصرحًا.

ترى هل اختار البنا هذا الحي لنسبة الفقراء والناس الطيبين الغلابة الموجودين فيه حيث ستصبح الدعوة الموجهة إلى عقولهم مرهونة بالخدمات التي تقدّمها الجماعة؟

وفجأة خطر ببالي خاطر غريب جدًا، جعلني أبتسم دون شعور.

ترى هل كانت قمر يومًا جزءًا من هذا المكان؟...."( ص٣١٢)

" وصلنا إلى المنزل المزعوم، مقر الأخوات المسلمات بالناصرية..

منزل واسع.. مكون من طابقين، حوله حديقة كبيرة، مفروش فرشًا متواضعًا لكنه محترم وبسيط.. تقدمتني سمية ودخلت وراءها أجرجر قدميّ، والسؤال الذي يطاردني : هل أعود؟ هل أنا مقدمة على خطوة صائبة حقًا يتمناها زوجي، أم تراني قد انزلقت إلى نفس الهاوية التي سبقني إليها خالد؟

لا لن أنزلق إلى نفس المصير أبدًا.. فأنا سيدة متعلمة ولي أحلام لن أتركها تتهاوى بسهولة.. وتشبثي بزوجي وبالبيت الذي بنيناه سويًا هو الشيء الوحيد الذي دفعني اليوم لأكون هنا..

كانت كل الموجودات بالمكان سيدات مختمرات أو منتقبات متشحات بالسواد..“(ص ٣١٣)

## جهل بالتاريخ

واضح أن مهشيد لا تعرف تاريخ هذا الحي العريق في القرن العشرين، فقد كان حي الحركة الوطنية ضد الاستعمار، ونشأت به الأحزاب العريقة والجماعات السياسية المعروفة، وأشهر الصحف السياسية والأدبية، ودور النشر، وولد به أشهر الزعماء في العصر الحديث أو عاشوا، ولم يكن حسن البنا وجماعته بدعًا في ذلك، فالحي قلب القاهرة السياسي والفكري والثقافي، وهو ما تجهله السيدة مهشيد.

أما المنزل المحترم الواسع الذي تنشط فيه الأخوات فهو يدل على وضوح الحركة وقوة وجودها وتلقائيتها، ولا يتسق مع ما تفرضه ظروف العمل لجماعة سرية إرهابية مكروهة كما تذهب الساردة.. أليس كذلك؟

## - ٤ -

وفي كل الأحوال فإن مكان الرواية وزمانها يمثلان جانبًا مهمًا في بناء الرواية، ولكنه للأسف لم يحسن استخدامه بسبب ما يمكن تسميته بالترهل أو فوضوية التركيب، وعشوائية السرد، فالرواية تخرج عن البناء الفني المتعارف عليه، لتقدم مجموعات من الصفحات بعضها يحمل عناوين، كأنها عناوين المقالات، وبعضها يأتي دون أية عناوين على الإطلاق أو يفصل بينه وبين ما سبقه بعلامات تشكل فواصل بين الفقرات السردية مثل العلامات التي نراها في المقالات والبحوث العلمية.

نطالع هذه العناوين وبعضها مكرر كما نرى، منذ أول الرواية:

بداية ونهاية،(١٣٨٢- ١٥١٧م) وطن وغربة- فارس ومملوك- حلم وكابوس- ميلاد ووفاة- (١٩٥٤- ١٩٨١) حلم وكابوس- أبيض وأسود- حلال وحرام- قشة وبعير- يسر وعسر- (١٩٧٩-٢٠١١) هزيمة وانتصار- قمع وحرية- نعمة ونقمة- نهاية وبداية.

### منشورات سياسية

العناوين كما نرى فيها تقريرية، وتشي بأنها عناوين منشورات سياسية وبيانات حزبية، وهو ما يخالف لغة الفن والأدب في مجموعها، وهي على كل حال تتسق مع مضامين الرواية (استخدام مصطلح رواية هنا مجازي؛ لأنها تتضمن حدوتة غير مطابقة للمواصفات الفنية).

المضامين عبارة عن مرافعات فاشلة، وكل مرافعة تتناول موضوعًا تثيره الصحافة الحكومية وصحف التجّار التابعين للسلطة من وجهة نظر معادية للإسلام والفطرة الإنسانية، من عينة الحجاب والنقاب والختان وتحديد النسل وتعدّد الزوجات والمساواة بين الرجل والمرأة والزواج السري وحرية المرأة في التعرّي( ما يعرف بحركة فيمن).

وتبقى المرافعة الأكثر فشلًا وانحطاطًا هي التي تمس الإسلام في حقيقة الأمر، وإن كنا للتخفيف نسميها هجاء الحركة الإسلامية، وشيطنتها، وتحويلها إلى عدو للشعب المصري وتجريد المنتمين إليها من الوطنية، والأخلاق والإنسانية، وإلصاق تهم الشر الموجودة في العالم بهذه الحركة دون تقديم دليل واحد يعضد من المرافعة الفاشلة البذيئة اللهم إلا إذا كان هذا الدليل هو عدم رضا الحكومات المستبدة الدموية عنها وعن منهجها، في الوقت الذي تغيب فيه الإشارة، مجرد الإشارة إلى جرائم أعداء المسلمين والعرب، في فلسطين المحتلة أو سوريا أو العراق أو غيرها، كما تغيب الإشارة مجرد الإشارة إلى اليساريين والشيوعيين وأتباع الغرب الاستعماري وهم من هم في الولاء لغير الله وخدمة اليهود الغزاة ودول الاحتلال، كما تختفي الإشارة إلى الاستبداد أو القهر الذي يخنق البلاد والعباد، ويقترف كثيرًا من جرائم التعذيب والاستباحة لحقوق البشر، ومن قبل قاد البلاد إلى هزائم مذلة وتخلف مريع، وعنصرية مقيتة وبؤس شنيع شمل الميادين المختلفة والمجالات المتعددة.

## بناء فوضوي

لقد خدم البناء المترهل أو الفوضوي فكرة الرواية / المنشور السياسي أو البيان الحزبي خدمة كبيرة، حيث أطلق العنان لسرد غاية في القبح والدمامة فكريًا ولغويًا وفنيًا.

ماذا يعني أن تحب امرأة شخصًا ثم تكتشف - يا للهول!- أنه من الحركة الإسلامية ؟ تقوم القيامة ولا تقعد، ومع ذلك تظل مرتبطة به، بل تغالط نفسها وتنتمي إلى الحركة المذكورة حتى يتم القبض عليها وتترك ابنتها الوليدة بعيدًا عنها لمدة خمس سنوات، ثم تخرج من السجن، فتربّي ابنتها على المبادئ التحررية التي تقودها إلى علاقة غير مشروعة مع شخص متزوج، يطبل لتحرير المرأة ولكنه يأبى أن يتزوجها علنًا، ويتركها دون أن يعترف بابنته التي ولدت في الظلام؟

عجيب أمر دعاة تحرير المرأة عندما يجد الجدّ يتخلون عن هتافاتهم ولافتاتهم التي يؤمنون بها في الظاهر ويعلنون عنها أمام الناس، ولا يصمدون أمام القيم والتقاليد السائدة، ولا أقول قيم الإسلام ومبادئه، ثم تتملكهم سلوكيات الخسة والنذالة والجبن، فيؤثرون الأنانية والهرب بجلودهم. ويبدو هذا في النص السردي الذي بين أيدينا أمرًا بسيطًا وهينًا وهامشيًا أمام الخطر المزعوم للإسلام والحركة الإسلامية على حرية المرأة.

## جماعة فيمن

مريب أمر الاحتشاد السردي والتضامن الضمني مع فكرة التعرّي التي تقوم بها جماعة النساء (فيمن) في السويد، تعبيرًا عن الاحتجاج ولفت الأنظار إلى قضايا يتصور دعاة تحرير المرأة أنها يمكن أن تكون مجدية ويمكن أن تعيد الحقوق السليبة للنساء وبعض الجماعات الشاذة.

غريب أمر دعاة تحرير المرأة أنهم لا يفكرون ولو لحظة في ثنايا الرواية في أمر تحرير الأوطان من المستبدين والطغاة والتبعية لأعداء الأمة، وكأن حرية المرأة منفصلة عن حرية الأوطان والرجال والإرادة الشعبية.

في نهاية الرواية تبدو لفتة ساذجة إلى مشكلة هجرة الشباب المصري إلى أوربا بحثًا عن لقمة العيش في مراكب الغرق الشهيرة، حيث تقوم الابنة أيسل التي غرّر بها داعية تحرير المرأة وهرب منها ومن طفلتها التي ولدت سفاحًا، بالهرب إلى إيطاليا عن طريق مراكب الهجرة غير الشرعية، ولكنها تغرق مع من ألقي بهم في الماء ويتولى أحد الأشخاص توصيل الطفلة إلى جدتها مهشيد بعد الإنقاذ فتربيها على مبادئ التحرر المستحيلة، ما أبشع تزييف الواقع! ما الذي يدفع شخصية مثل أيسل تحضر بصورة متكررة مؤتمرات وندوات في السويد وغيرها وتحصل على تأشيرة شرعية بسهولة، بل إن الاتحاد الأوربي يمنح من يسافر إلى إحدى دوله – ولو مرة واحدة – ما يسمّى بتأشيرة "شنجن" التي تسمح لصاحبها بالسفر في أي وقت إلى عواصم أوربا ؟

إنه الخلل الفني في خضم خطاب الدعاية المحرّض على الكراهية والإقصاء الذي تتبنّاه الرواية.

## رابط ضعيف

لاشك أن الربط بين المرأة/ الجارية قبل ثمانية قرون تقريبًا، والمرأة في منتصف القرن العشرين هو ربط واهٍ وضعيف ولا وجه فنيًا له ، وحكاية الصندوق الموروث الذي تسجل فيه كل امرأة ما تعيشه أو تفكر فيه بالنسبة لحريتها ووجودها وعصرها ليكون دليلًا تسترشد به ابنتها أو مَن تخْلُفها، لا تنهض دليلًا على تماسك البناء الروائي، فعصر المماليك كان يمثل الرق أو العبودية الصريحة التي لم تكن قاصرة على الحضارة الإسلامية آنئذ، بل كانت هناك عبودية سافرة أشد قسوة في أوربا وإفريقية وآسيا، وكان النظام العالمي يومئذ يعترف أن العبيد

رجالًا ونساء لا حقوق لهم ولا حرية، فهم من ضمن الممتلكات أو الكائنات التي تخدم السادة، وحده الإسلام وضع المحفزات على تحرير العبيد وحرّض على هذا التحرير في كفارات القتل والصيام والعلاقات الزوجية والتقرب إلى الله بصدقة العتق ابتغاء الثواب من الله، ووضع أسسًا إنسانية وخلقية عادلة لمعاملة العبيد.

الجارية قمر جاءت من بلادها لتكون في خدمة سيدها السلطان الذي يحكم مصر، ولكنها تتمرد على هذه المهمة وتستبيح قتل هذا السلطان الذي لا تحبه، مع أنها لو كانت أنجبت منه لصارت أم ولد لها حقوق الحرائر، هي تحب الفتي شهاب الدين الذي انضم لعبيد السلطان، وتدرّب على العمل في القصر وتعلق بها، ويستغل مهمته في الإشراف على طعام السلطان ليدس له السم فيموت وتخلص قمر زوجة له. وتورث الصندوق الذي تعتز به لابنتها وتوصي بتوريثه لأجيال المرأة التالية حتى بطلة عصرنا "مهشيد" التي تجد فيه حسب النص تاريخًا نضاليًا للمرأة من أجل حريتها تواصل السير على هداه..!!

## عصر مختلف

بيد أن الأمر اختلف، فالمرأة في عصرنا ليست سلعة تباع أو تشترى، هي من تملك قرارها حتى لو بدا أن هناك أسرًا تفعل شيئًا آخر، وهي في عصرنا تعلمت وتخرجت في كلية الطب وتزوجت عن حب واختيار، فلماذا النواح التاريخي المستمر على حرية المرأة ؟

لو أن الكاتبة طبيبة الأسنان، ركّزت على العصر المملوكي، وعالجت قضية المرأة – إن كانت لها قضية منفصلة عن الوطن والرجل – فربما حققت بعض القيم الفنية الجيدة، ولكنها للأسف لم تفعل، ولو أنها

قرأت ما كتبه بعض الكتّاب الرواد والراسخين عن عصر المماليك مثل محمد فريد أبو حديد ومحمد سعيد العريان، وسعد مكاوي، ونجيب الكيلاني، ومحمد جبريل، وحجاج حسن أدول... لوجدت تناولًا فنيًا له أبعاد مثمرة في تقديم المرحلة المملوكية بملامحها العديدة والمؤثرة على مسيرة الوطن قديمًا وحديثًا، وتجاوزت النظرة الضيقة التي جعلت من هذه المرحلة قاصرة على تقديم بعض الملامح الباهتة للقاهرة المملوكية التي وظفتها لتمرد الجارية قمر على السلطان الذي اشتراها ، لقد دفعت شهاب الدين لقتله بالسم، وبدا الأمر مسألة عادية لها مسوّغ أخلاقي في النص وهو فتح الطريق أمام الحب كي يثمر! وكأن القتل شيء يمكن ممارسته دون وخز الضمير أو القلق الإنساني، وكأن القتيل صرصار تم قتله في الحمام!

## الاستهانة بالحياة

ويبدو أن عتبات النص أو مقدماته التي تمثلت في العنوان والإهداء ومقتبس عمر الخيام، كانت تشير إلى الاستهانة بالحياة في سبيل الظفر بالحبيب واللذة دون مراعاة لأي وازع خلقي أو ديني أو اجتماعي أو إنساني ..

تأمل عنوان الرواية "جواري العشق!". هؤلاء الجواري من هن؟ هل يُبعن من أجل الحب على الأرصفة؟ وهل من يشتريهن يبحث عن العشق الذي يمثل في مستوى من مستوياته مرحلة روحية تجعل التناغم الروحي بين الطرفين أمرًا أساسيًا، إذا اختفى فلا وجود له؟

لاشك أن العنوان اختيار تجاري بامتياز، يستهوي المراهقين، والباحثين عن كتابة بعيدة عن وجع الدماغ السياسي والفكري، ويسلي السيدات اللاتي كانت حظوظهن الاجتماعية ضعيفة، وللأسف فإنه لا

يعبر عن مضمون حقيقي، فليست هناك جوارٍ للعشق بالمعنى الدقيق، ولكن هناك جارية عشقت عبدًا، ودفعته لقتل سيده كي تستمتع به، وتم لها ما أرادت، ومع ذلك تعد نفسها شهيدة اغتيال الرجل لحريتها!

في الإهداء تتوجه الكاتبة إلى أمها وأبيها وابنتها، ومن تدعى نور التي تراها امتدادًا لقلمها ودرة حياتها ، ويبدو أنها ابنتها أيضًا.

يستوقفنا في الإهداء ما توجّهت به إلى أبيها، فهو الذي علمها الحرية – كما تقول – مبدأ وموقفًا، وكان دومًا قدوتها وملجأها، ولذا فإنها تحترمه ، والملاحظ هنا أن أباها هو الرجل الوحيد الذي يحظى بالاحترام على امتداد مئات الصفحات باستثناء شهاب الدين المملوكي الذي أحبته قمر ودفعته لقتل سيده.

## التجربة الشخصية

الرجال في النص بغض النظر عن مواقفهم ومعتقداتهم مشوّهون، أو أنانيون أو منحرفون، أو سلبيون، ولا يقدّرون المرأة، بل يسلبونها حريتها وكرامتها، لذا فإن احترام الكاتبة لأبيها استثناء يطرح فكرة التناقض في الرؤية والتصور لدى الكاتبة، مما يطرح سؤالًا حول أثر التجربة الشخصية في النظر إلى الرجل بصفة عامة، وهل كان ذلك نتيجة فشل عاطفي أو إخفاق اجتماعي؟ في الإهداء لم يظهر أثر للزوج مع كثرة المهدى إليهم، وإن توجه للابنة أو الابنتين، مما يعني أن الرؤية ليست فنية ولا موضوعية.

أتي مقتبس عمر الخيام ليسهم في الترهّل أو الفوضى التي تحكم الرؤية الفنية والبناء الفني معًا. تقتبس الكاتبة بعض الرباعيات التي تغنيها أم كلثوم من ترجمة أحمد رامي:

**سمعت صوتًا هاتفًا في السحر نادى من الغيب غُفاة البشر**
**هبوا املؤوا كأس المنى قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر**
**لا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان**
**واغنم من الحاضر لذاتـــه فليس في طبع الليالي الأمان**
**غد بظهر الغيب واليوم لـــي وكم يخيب الظن في المقبلِ**

الخيام شاعر وفيلسوف يعيش الخيال والأفكار التي تعبر عن منحنيات حياته الخاصة وواقعه الشخصي، وهي أقرب إلى مذهب المنفعة أو النزعة الأبيقورية أو مذهب اللذة، فكيف تتسق هذه الرؤية مع ما تصبو إليه الكاتبة في نصها الذي بين أيدينا من تحرر ومساواة وإنسانية وسعي نحو العشق بمفهومه الروحي؟

أغلب الظن أن هذا الترهّل أو الفوضى السردية لا تحتكم إلى خبرة فنية أصيلة، أو موهبة سردية حقيقية تملك الإتقان والصياغة المتفردة.

## الكاتب الخبير

طالعت منذ زمان بعيد رواية لنجيب محفوظ يستدعي فيها ألف ليلة وليلة، وتدور أحداثها في العصر المملوكي، ولكن الكاتب الخبير يوظف قدراته وموهبته اللامعة لمعالجة قضايا حية – وفيها ما يخص المرأة – تصلح لكل زمان ومكان؛ لأنها تتضمن رؤية عميقة تضع في اعتبارها معالم الكون والإنسان والتاريخ والجغرافيا، ولا تعبر عن استجابة لرد فعل وقتي وشخصي، بما يهبط بمستوى التعبير إلى المستوى الخطابي الهتافي الزاعق الذي يصمّ الآذان، ويخدم غاية دعوية سياسية تنحاز إلى

نظام سياسي مستبد، يشهّر بمخالفيه، ويستخدم قدراته الأمنية لإيذاء المواطنين وإيلامهم، وتجنيد الأتباع والأبواق التي تساعده على ترسيخ استبداده وتقنينه، وحرمان الجموع الشعبية من حريتها، وكرامتها، وقيمة العدل التي يتميز بها الحكم الرشيد في الدول الحرة المحترمة.

لا ريب أن البناء الفني يتهشم بسبب الخبرة المحدودة والموهبة الضعيفة وغلبة الانفعال الشخصي الذي تحركه فيما يبدو تجربة عاطفية شخصية غير موفقة، وهنا يلتقي الشخصي مع الواقع القمعي لعامة الناس، لصناعة بناء مهلهل لا يحقق المتعة الفنية ولا ينجح في توصيل الرسالة الفنية المفترضة.

## - ٥ -

سوف نشير فيما يلي إلى أهم الشخصيات التي ظهرت على امتداد النص السردي جواري العشق، لنرى طبيعتها الفنية والذهنية والسلوكية في إطار الفكرة العامة لمسألة تحرير المرأة التي تناضل من أجلها الساردة العليمة بكل شيء أو الكاتبة.

### الحرية منحة

الشخصية البارزة في الجزء المملوكي من النص هي شخصية شهاب الدين إينال، اشتراه السلطان فخر الدين جقمق من بلاد الكرج(جورجيا الآن)، وربّاه في قصره مع بقية المماليك، فتفوّق على أقرانه وعلى معلمه في فنون القتال، ورأى الأشرف بركة خان، مساعد السلطان، أن نزول المماليك إلى الناس واختلاطهم بالعامة ومن بينهم شهاب الدين يزيد من قدرتهم على التكيف وفهم الصورة الاجتماعية بشكل أفضل، وهو ما أتاح لشهاب أن يرى قمرًا ويتعلق بها.

حين سئل عن كينونته، لم يجب، فهو لا يعرف أهو رجل حر أم سيظل سعيه وراء الحرية قدرًا يطارده للأبد؟! وكان قد سمع السلطان يقول: (حريتهم ليست سوى منحة في أيدينا، نمنحها لهم وقتما نشاء، وننزعها منهم متى نشاء، هل فهمت ما أعنيه؟ ".(ص ٢٦)

كما يسمع من السلطان ضرورة السمع والطاعة والدفاع عن الحكم ضد الأعداء في الخارج والداخل، وعليه الشكر والعرفان والطاعة العمياء مقابل الثقة والمنصب الممنوحين له.

صار صديقًا لشاب اسمه سيف الدين برسباي، له قوام متناسق، طيب القلب، حلو اللسان، ويكتب الشعر، ويعشق القراءة، ويوجّهه لممارسة المتعة مع الغانيات مقابل المال ليثبت رجولته، ولكنه مشغول بقمر وشخصيتها المتفردة.

## الجاشنكير

يترقّى في البلاط حتى يصبح الجاشنكير (ذوّاق الطعام) وهي وظيفة خطيرة؛ لأنه يذوق الطعام قبل أن يتناوله السلطان، ومن خلالها استطاع قتل السلطان بالسم الذي دسه في طعامه بمساعدة بهلوان مهرج السلطان، بعد أن أوحت إليه قمر بتصفية سيده، لينالها ويصبح سيدًا على البلاد، وبهلوان يؤثر في حياة شهاب الدين بالنصائح والتوجيه، ليتقدم بقوة وحذر وعدم الالتفات إلى الخلف فالمستقبل ينتظره، ويشهد بعد جريمة قتل السلطان أنه أوصى بشهاب خليفة من بعده، ويؤيده الأشرف بركة، ساعد السلطان الأيمن، لنكتشف – دون مقدمات – أن من حول السلطان جميعًا كانوا يكرهونه، ويتآمرون عليه في السر، وأن الرعية ذاقت منه الأمرّين – كما يقول النص – فلم يعد له رصيد في الحب لديهم، لقد أفقدتهم قسوته وفساده التعاطف والحب والتسامح. (انظر الرواية، ص ٢٠٠ وما بعدها)

وواضح أن ما سبق عن بهلول وغيره، يأتي في سياق التعليل غير المقنع لقتل السلطان من أجل تحقيق الحب بين الجارية قمر والعبد شهاب الدين.

## إحساس الكبرياء

يصفها شهاب الدين بأنها لا تحمل نظرة انكسار مثل بقية الجواري، وكان واضحًا في ملامحها إحساس الكبرياء والاعتزاز بالنفس، وقد

صارت جارية بعد إصابة أبيها وعجزه عن العمل، فقد بيعت لأحد النخاسين وهي في التاسعة، وبدوره باعها لغيره في سمرقند التي تعلمت فيها الشعر والأدب والرقص وفن معاملة الرجال، وكانت من أجمل الفتيات وأكثرهن ذكاء، ولكنها تتميز كما تقول - سيدة الدار الكبيرة التي قامت على تربيتها- بالعناد، وقد أوصتها باستعمال الذكاء للفوز بسلطان تمنحه ولدا يحقق لها الخلاص من العبودية إلى الأبد.

كان تفكير قمر يعي أنها تركت والديها من أجل حياة أفضل، فهي ليست مجرد وجه جميل أو جسد ممشوق، ولكنها تبحث عن الحقيقة الوحيدة وهي كيانها.

"شتّان بين الحب والمتعة، فالحب لا يشترى ولا تجبر عليه النساء، الحب قدر وحلم وكرامة"( الرواية، ص ٨٥)

تقول لها القهرمانة:

".. لقد خلقنا نساء، وفي مرتبة أقل من الرجال، نحن النساء يجب علينا أن نضع ذلك في الحسبان، المرأة الذكية هي التي تستطيع الفوز بقلب الرجل بتقديم المتعة له، فأنتِ حين أصبحت جارية، وافقت على أن تصبحي امرأة في بلاط كل الرجال، إلى أن تجدي الرجل الذي سوف يمنحك حريتك، ولكن في مقابل أن تستخدمي ذكاءك لتصبحي واحدة من حريم الأمراء أو السلطان، وقتها سوف تعرفين أنك كسبت كل شيء.. فالعناد لن يصل بك إلى أي شيء.

ردت قمر:

- ما قيمة أن يكسب الإنسان كل شيء ويخسر نفسه؟! إنني لن أقبل أن أقدم نفسي للرجال مثل البضائع في الأسواق، المرأة لم تخلق في مكانة أقل

من الرجل، إن جسدي لن يصبح ملكًا لأحد، إلا لشخص واحد فقط، وهو الشخص الذي سوف أمنحه حبي وإخلاصي...“ ( الرواية ص٨٥)

## صاحبة القرار

ثم إنها ترد على شهاب حين يحدثها عن ثقة السلطان به وحبه له بالقول:

- ”.. أرجوك لا تغضب مني.. وجودي بالقرب منك شيء أتمناه، وحمايتك سوف تمنحني كل الأمان.. ولكن الحرية هي ما أبحث عنه.. حريتي.. حرية وجودي واعتقادي.. أتمنى أن أصبح صاحبة قراري....“ (ص ١٠٠). إنها تتمرد على قرار الرق، وإن كانت تعلم أنها جارية بيعت لأجل أن تحل مشكلة في أسرتها، وهي تبحث عن حرية الوجود، ولكن ما هي حرية الاعتقاد التي تقصدها؟ الرواية لم تقدم مسوغًا أو مفهومًا لهذه الحرية.

بعد أن قطف السلطان براعم عذريتها تعلّمت درسًا واحدًا عن العشق:

”فالعشق حين يأتي بالرضا يصبح حبًا، وحين يأتي عنوة يصبح اغتصابًا للمشاعر، وليس فقط للأبدان.

واغتصاب المشاعر هو قتل بطيء تخرج معه الروح من بين أصابع الضحية بصعوبة مضنية.

أما اغتصاب الجسد فهو لحظة يموت فيها المعنى الحقيقي لكرامة الإنسان، لحظة تصمت فيها دقات القلوب عن الحديث للأبد..“ ( ص ١٦٠)

بعد أن يتحقق حلم قمر بقتل السلطان ولقائها بعشيقها الذي خلفه، تذوب معه في العشق، وتبادله حبًا بحب وعشقًا بعشق، وهوى بخمر من الحنان..

وتهدي صندوقها إلى البنت التي تنتظر مولدها وليس الولد، لأن المرأة هي الحب.. هي الحضن.. هي الحرية حين تريدها.. حتى لوجاء

كل ذلك على أطلال الدماء الحرام نتيجة التحريض السافر على القتل:

اقتله.. اقتله!

".. وقال لها بأنفاس متهدجة :

- أنت لي شئت أم أبيت.. لن أتركك له، لن تكوني سوى لي.. سوف أذهب إليه وأصارحه بحبي لك. أجبره على تركك حتى لو كان الثمن حياتي.

ردت بهدوء شديد:

- ولماذا لا يكون الثمن حياته؟

تسمّر شهاب الدين في مكانه.. إلام ترمي؟ ماذا تريد أن تقول له؟ هل فهم قصدها بحق أم إنها تهذي؟!

قطعت عليه الشك باليقين:

- اقتله .. اقتله!

تجمّد في مكانه، وتوقفت نبضات قلبه، وأبت الدماء أن تسري في عروقه.. إنها تهذي..

- ماذا تقولين ؟ هل جننت؟ إنه مولاي وسلطاني.

ردت ويدها تتخلل خصلات شعره بكل حب:

- اقتله أنت قبل أن يقتلك هو.. إنه ليس سلطانك يا معشوقي. إنه سلطان المماليك وأنت لست واحدًا منهم سوى بالاسم فقط.. وهو سلطان جائر أيضًا..." (ص ١٨٥)

وتؤكد قمر منهج القتل بعد أن تشرح لشهاب الفرق بين السلطان العادل والسلطان الجائر، وأن المرأة روح وليست جسدًا، وأن الله خلقها من ضلع الرجل لتسكن إليه ويسكن إليها؛ لا لتكون سلعة في حانوت

ضمن بضائع كثيرة، وتستفز رجولته بقولها:

- "اقتله! صدقني فهو لن يتنازل لك عني، فقد أخبرني وأنا ألملم ثيابي في تلك الليلة الغابرة - تقصد ليلة أن دخل بها - بأنه لن يتركني أفلت من بين ذراعيه أبدًا.. يبدو أنني قد نجحت في إسعاده يا مولاي الأمير أخور.. لقد كنت له جسدًا أسعده يأيها الجاشنكير الهمام!" (الرواية، ص١٨٥-١٨٦)

## لا يستحق الحياة!

ثم يزيد صديقه بهلوان الأغا المفضل لدى السلطان التأكيد بالقتل، وهو يخرج من وراء الملابس حيث يفاجئ العاشقين بقوله الذي يوجّهه إلى شهاب:

- "اقتله! استمع إلى نصيحتها واقتله.. إنه لا يستحق الحياة" (ص١٨٧)

لماذا لا يستحق الحياة ؟ لأنه سلطان جائر؟ أو لأنه اشترى جارية لا تريد أن تعترف بقواعد الرق؟ هل القتل هو الحل لمشكلات العشاق وتحقيق الشهوة الحرام؟ وما الفارق بين هذا السلوك وسلوك الإرهابيين الذين لا يؤمنون بالحوار ويتم تجييش العالم لمحاربتهم؟ وهل يحق لكل عاشق أو عاشقة أن يقتل من يقف في طريقه ليظفر بالمتعة الآثمة؟ ثم يتم تقديم التفسيرات والتبريرات الواهية التي تشرعن القتل وتوجبه، وتحدد طريقته بالسم حيث يمتلك القاتل فرصة أفضل للتخلص من الضحية دون إراقة دماء، وهي وظيفة الجاشنكير "ذوّاق الطعام" (انظر: ص ١٨٧-١٩٠)

في سبيل الحب بل المتعة بل الشهوة يصير القتل واجبًا، وتعليل ذلك بأن شهابًا سيلقى حتفه على يدي السلطان تعليل غير مقنع، حتى لو افترضنا جدلًا أن السلطان سيقتله - ولا موجب آنئذ للقتل - فإنه

يستطيع أن يهرب أو يختفي من مواجهته مع صاحبتنا التي نسيت أنها جارية وتريد أن تنقض على مالكها، وتوظف من تشتهيه – ولا أقول تحبه – ليكون قاتلًا ، هل من تعرف الحب تملك هذه القسوة لسفك الدم؟

## روافد دموية

لا أظن حرية الوجود والاعتقاد التي تبحث عنها الجارية تجعل من حقها قتل مالكها الذي لا يعجبها ولا ترى فيه إلا حيوانًا يبحث عن اللذة من جارية جميلة، إنها بشاعة الباحثات عن إشباع الشهوة، وليست رقة من يحملون نسائم الحب، ورغبة العطاء والرحمة والشفقة، هل مشاعر الجارية التي تتغنى بالشعر وتقرضه تتحول إلى روافد دموية شيطانية ضد سلطان اشتراها وفق أعراف زمانه وتقاليده؟ ما هذا العشق الدموي الذي تعبر عنه المرأة تحت دعوى البحث عن حرية الوجود وكينونة الذات؟

في تاريخنا الأدبي الشعبي تنهض شهر زاد التي لم تكن تحب شهريار بمهمة ترويضه وتحويله إلى إنسان آخر، وأي امرأة قادرة على ذلك، ولكن شهر زاد روايتنا لا تتورع ولا تتردد أن تكون قاتلة في سبيل إشباع رغبتها.

تنشر الصحف اليومية من حين لآخر قصصًا عما تفعله بعض الزوجات الخائنات، منها على سبيل المثال ما تقترفه الخائنة من قتل زوجها بالسم لتستمتع بالعشيق وتتزوجه، أو تخمد حياة طفلها مهجة قلبها ، الذي ينغص عليها الاستمتاع بالعشيق كما تبتغي، فهل نعدّ هذا القتل مقبولًا من جانب النساء الباحثات عن الحرية؟

نحن إذًا أمام خلل فكري وعاطفي في تفكير محررات جواري العشق، ويتمثل هذا الخلل في جانبين، أحدهما: الاعتقاد أن المرأة هي

الجانب المظلوم دائمًا، والمجني عليه باستمرار، بينما المرأة في كثير من الأحيان تمثل الجانب الشرس الذي يمارس العدوانية، وخاصة حين تتمكن من نقطة ضعف الزوج، الآخر: يكمن في تقنين القتل طريقًا للاستمتاع بالمعشوق، وهو فكر طائش لا ينتمي إلى قيمة الحب بمعناه الإنساني بأية صلة أو رابطة، وهو ما سوف نرى آثاره أنانية وكراهية وعنصرية على امتداد الرواية بالنسبة للمرأة المعاصرة( مهشيد، وأيسل).

## مهيضات الجناح

تمثل مهشيد المرأة المعاصرة التي تتجاوز خطاب القتل إلى خطاب الكراهية والتشهير والعنصرية، ومهشيد اسم إيراني قديم معناه القمر أو ضوء القمر، تحمله فتاة يعمل أبوها قاضيًا ، وهو مشغول طول الوقت بهموم الناس، غير مهتم بحياة مهشيد وأختها في ظل حياته الصارمة، لا تتذكر يومًا أنه داعبها أو جرى وراءها في الشارع، يا له من شخص متكرر ممل!

" ترى هل وجدت فيه أمي يومًا فارس الأحلام؟ أم كانت مجرد رحلة زواج عادية كتبها القدر وخططتها التقاليد والأعراف؟

فالنساء في المجتمعات الشرقية يجب أن يتزوجن..

ويجب أن يتزوجن في أوقات محددة.. وإلا ..

وإلا أطلق عليهن ألقاب حزينة مثل:" عانس" أو بايرة".

هنا تتدخل الأعراف لتكتب حياة أغلب الفتيات الشرقيات..

كم نحن مهيضات الجناح؟(ص ٢١٣)

مهشيد حفيدة للجد المملوكي الأكبر الجاشنكير والجدة الكبرى قمر، وعدتها أمها بتسليمها الصندوق المليء بالخطابات والأشعار عندما تكبر، وتفي الأم بوعدها عندما دخلت مهشيد الجامعة فتطالع قصة الجدة

الكبيرة أو البعيدة جدًا وتتعرف على ما بذلته من أجل الحرية لحفيداتها.

حين التحقت بكلية الطب عام تولى السادات الحكم؛ تعرفت على صديقتها عزة، وهي وجه تستريح له من أول نظرة، فتاة رقيقة الملامح، ضحوك الوجه، عذبة الأخلاق، تصادق الجميع وتتودّد إليهم، لا من باب التصنع ولكن من باب الود الشديد والقلب الكبير.

## الحجاب يشبه اللثام

وتروي مهشيد أن علاقتها بالسياسة لم تكن قوية، ولكنها مثل عائلتها كانت متفائلة بالسادات الذي قضى على مراكز القوى، وفي الجامعة كانت فائقة في الدراسة، وصار لها شلة من الأصدقاء لا بأس بها، ولكنها كانت تضيق بالطلبة المتدينين. وتكره زميلاتها المحجبات، وتصف الحجاب باللثام "انتي قصدك متلتمة!" (الرواية ص٢٣٢)، وتشيد بالسافرات على طريقة مثقفي السلطة الذين يمدحون أيام أم كلثوم حين ساد الميكروجيب والفساتين من غير الأكـمام، وكانت الأمهات من غير حجاب دون إيشاربات على رؤوسهن؛ لأن عقلهن كان مكشوفًا للنور، وتردد مثل هذه الآراء في مواضع عديدة بالنص على أساس أن كشف العقل يحقق التقدم والانتصار، وتتناسى أن هذه المرحلة شهدت أبشع هزيمة عرفتها البلاد في عام ١٩٦٧، ومازال الناس يدفعون ثمنها حتى الآن!

انتقلت "مهشيد" بعد التخرّج إلى التدريب في قصر العيني وعانت متاعب التجربة التطبيقية الأولى، وانطلقت مع قافلة طبية من زملائها وزميلاتها إلى المنيا وقراها لمعالجة المرضى؛ لتتعرف على زميلها خالد من خلال المشاركة في عملية ولادة، وتنتقد مهشيد عملية الختان التي طلبتها المرأة لابنتها، وترى على لسان خالد أن الختان لم يرد في كتاب

ولا سنة، وأنه عادة فرعونية قديمة بدأت بسبب فرعون موسي الذي قرر أن يمنع السيدات من الإنجاب حين علم أن واحدًا من نسل بني إسرائيل سيقتله!( انظر ص ٢٤٢) بل إنه مشكوك في إباحته للصبيان! وتلقي خطبة إعجاب بقاسم أمين وتحرير المرأة، وتتعجب من خلالها عن وقوف بعض السيدات خلف الأسوار باختيارهن!

## الرجل الرائع (سابقًا)

بعد الكلام عن الختان الذي يتكرر في مواضع عديدة مثل الكلام عن الحجاب، يدق قلبها لخالد الرجل الرائع الذي لا تعرف عنه شيئًا سوى أنه رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ويبدو خالد صورة للكمال الإنساني في نظر مهشيد إلى أن تكون صدمتها – كما تراها – في انتمائه بعد زواجه منها إلى جماعة إسلامية كبرى، فيتحول إلى قاتل وشيطان رجيم، لماذا ؟ لا ندري، ومع ذلك تنتمي إلى الجماعة وتعمل معها، حتى يتم القبض عليها بعد مقتل السادات؛ لأن الجماعة هي التي قتلته كما تزعم، وأن زوجها خالدًا ضالع في عملية القتل، ويعاقب بالسجن المؤبد، وتقضي هي بين الجدران المظلمة خمس سنوات، بينما طفلتها أيسل خارج السجن لدى قريبة لها تربيها في الإسكندرية.

الحقيقة لها وجه آخر لا تعرفه مهشيد، فالذي قتل السادات ضابط من الجيش اسمه خالد الإسلامبولي، كان ينتمي لجماعة صغيرة قررت اغتيال السادات ردًا على اعتقال صفوة مصر من كل الاتجاهات، حيث غيبت المعتقلات أكثر من خمسمائة وألف من أبرز رجال المعارضة وعلماء الإسلام والفكر والثقافة، بالإضافة إلى آلاف من شباب الجماعات الإسلامية في الجامعات والمدن والقرى المختلفة، ولم يفرج عنهم إلا

بعد تولّي مبارك السلطة، وقد حكم على الإسلامبولي وجماعته بالإعدام والسجن المؤبد في محاكمة طويلة علنية ترافع فيها مشاهير المحامين، ولكن مهشيد تصر على كتابة التاريخ من وجهة نظرها، وتدين جماعة بأكملها، وتقرر هدم علاقتها مع الرجل الرائع الذي جعلها أمّا، دون سبب مقنع فنيًا أو تاريخيًا.

## المال والبنون

وتدعو مهشيد إلى تحديد النسل، وترفض الإنجاب لتصنع المستقبل، وتعيب على صديقتها عزة إنجابها أكثر من مولود، وتغضب منها؛ لأنها ترى سعادة الزوجة من سعادة زوجها، وتسخر من قولها " المال والبنون زينة الحياة الدنيا" (ص٢٨٥)

"إيه علاقة إيماني بربنا، بأن يكون عندي حلم أو طموح، أنا مش ضد الإنجاب أنا قررت تأجيله لما أخلّص الماجستير، ولحد ظروف خالد ما تتحسن ويبقى عندنا الإمكانيات نوفر للطفل حياة كريمة، وبعدين السيدة خديجة – رضي الله عنها – اللي حضرتك مسمية اسم بنتك على اسمها كانت بتشتغل وتدير تجارة، يعني كانت ست بتفهم وليها تجارتها ووضعها الاجتماعي في مكة.. مش مرضعة قلاوون!" (ص٢٨٦).

وعندما خاصمت زوجها خالدًا ترفض المصالحة التي عرضتها سمية زوجة عبد الرحمن في محاولتها للمصالحة مع خالد، وتقول: "كدت أنهض من مكاني وأهشم رأسها.. كم هي شخصية حقيرة، لقد كان رأيي فيها من أول دقيقة أنها شخصية مراوغة وليست مريحة على الإطلاق"(ص٣٠٣)

وتندب حظها، وتتحسر على الأيام الأولى لمعرفة خالد:

"خالد.. حبيبي الذي كان يقرأ الشعر، ويستمع إلى الموسيقى، ويهتم بالرسم.. رجل ينتمي إلى جماعة حسن البنا؟

خالد.. الرجل الذي كنت أستمع له بشغف وحب كلما همت الكلمات أن تخرج من بين شفتيه، رجل أصبحت عقيدته تحرّم الغناء والفن(؟).

خالد.. الرجل الذي أخذني بين ذراعيه، ثم لفظني إلى العراء وتركني أبحث عن وجوده في حياتي لأجده أخيرًا وقد ارتمى في أحضان قضية خاسرة.

إنني أهرب منه إليه.. وأهرب من قدري إلى قدر لا أعلم إلى أين يسوقني؟

شعرت بدوار شديد.. وبالصداع يأتيني من كل جانب حتى إنه سكن مسام عقلي".(ص٣٠٤ وما بعدها).

## حقائق تتكشف.. ما هي؟

وعندما انضمت مهشيد إلى الأخوات المسلمات بدأت حقائق كثيرة تتكشف لها كما تقول، فقد بدأن بتلقينها مفاهيم الدين الإسلامي وعقائده كما تم تلقينها لهن على يد حسن البنا.. وكما ظلت تلقن لكل جيل ينضم لتلك الجماعة على مر الأعوام.. وتفهمت بعد طول مراقبة وعن كثب لما يفعلونه ويقولونه أن السماح لهن بالعمل الدعوي تم فقط للتغلب على غياب الأزواج الدائم عنهن.!! ..(ص ٣٤٣)

هل كان تلقين حسن البنا لدين آخر يختلف عن دين الإسلام؟ ثم تدّعي على الأخوات:

" وكأن الله أمرهم بتعدد الزوجات مثلما أمرهم بالجهاد ضد المخالفين لعقيدتهم".(ص ٣٤٣) ما معنى الجهاد ضد المخالفين في العقيدة؟

وتستمر مهشيد في منشورها الدعائي ضد الحركة الإسلامية أو بالأحرى ضد الإسلام فترى أن السادات وقع في غلطة جرّت غلطات حين مدّ إلى الإسلاميين يده ليقويهم ويدعمهم على وجه العموم في المجالس

والمحافل، وعلى وجه الخصوص في الجامعات من خلال دفعهم للمشاركة في اتحادات الطلاب..( هل هذا دعم وتقوية؟ وهل مشاركة الشعب في الحياة السياسية غلطة وغلطات من جانب هذا الحاكم أو ذاك؟)

"ومن هنا وقعت غلطته التي جرّت بعدها غلطات لا حصر لها.."(ص ٣٤٤)

"أما المرأة فقد كان يتم استغلالها أيضًا في صفوف الجماعة..

فيتم بكل دقة وخطى ثابتة عمل غسيل مخ للنساء تحت مسمّى الإنفاق، حتى تصل إلى مرحلة تزهد في الحياة وفي مالها وحليها.. ( وهل استغلال الشيوعين للمرأة وغسل مخها؛ لتتخلى عن قيم المجتمع المسلم شطارة وامتياز؟)

وهكذا نجح الإخوان في تنحية النساء من الصورة تحت مسمّى الطاعة، وانتظار ثواب الآخرة.."(ص ٣٤٨)

خطاب الكراهية

وهذا هو رأيها في الإسلاميين من خلال خطاب الكراهية والتشكيك والتشهير الظالم:

"إنهم أناس يبطنون ما لا يظهرون!

يعملون مثل خلية النحل لنصرة الإسلام، أو هكذا يزعمون!

وفي الباطن.. هناك حركة غريبة تدور، وأشخاص مريبون يدخلون ويخرجون، وحوارات تتم في الغرف المغلقة تشوبها الريبة..

وبات مظهر خالد وهو جزء من تلك المنظومة، مظهرًا عاديًا تعوّدت عليه، أول مرة رأيته فيها، وهو يرتدي جلبابًا أبيض، ويدخل علينا بعد صلاة العشاء، يومها أسقط في يدي!" (ص ٣٤٨)

" في محاولة باهتة جديدة للتوسع والانفتاح على العالم الخارجي، بدأت الأوامر تأتي لرجال الجماعة بأن يتزوجوا من خارجها، وكانت تلك من المحظورات من قبل..."(ص٣٤٩).

وتناقش مهشيد ما قاله البنا في رسائله حول المرأة وموقف الإسلام منها بمنطق متعسف متكلف رافض لتشريعات الإسلام في حقيقة الأمر:

"مرت سنوات وأنا مسجونة في سجن زوجي وجماعته.. تململت ولكن لم أحاول الفرار.. تأذيت ولكن لم أعلن يومًا عن أذاي ..

هل أصبح فجأة دور الجارية في عصر بلا جواري يليق بي؟!"(ص ٣٦٢)

## تقرير أمني

وتنتهي مهشيد في منشورها الدعائي الذي يحمل الكراهية والإقصاء والتحريض السافر على الحركة الإسلامية بل على الإسلام وتعاليمه التي لا تروقها ولا تستريح إليها، وكأنها تنقل من تقرير أمني في دولة معادية للإسلام والمسلمين، ونوجز نتيجة البحث الأمني:

"تكشفت لي الكثير من الحقائق مع الوقت..

الحقيقة الأولى.. أن المرأة هي الشغل الشاغل لجميع المتطرفين دينيًا، والنظرة لها منظور واحد فقط هو جسدها، أما عقلها فهو غائب بحكم أنها ناقصة عقل ودين!

ولذا فهي تبقى ممزقة دومًا بين الحجب والاستباحة.. سجينة أبدًا بين أصوات تعلو لتحررها وأصوات تعلو لتقهرها.....

الحقيقة الثانية.. هي الازدواجية الجلية في أغلب المعايير التي يتعامل بها الإخوة والأخوات داخل الجماعة، فهم ضد أغلب الأنظمة، ويعملون معها من خلف الستار.....

الحقيقة الثالثة.. هي أن أعمال البر التي يقوم بها الإخوة والأخوات في الجماعة لا تخرج عن كونها خطوة في طريق تحقيق أطماع: مثل: دخول البرلمان، أو الانخراط في الحياة العامة بغرض كسب أصوات وقت الانتخابات.. فتوزيع أنابيب البوتاجاز بسعر زهيد، وكفالة اليتيم، وإقامة وزارة تموين داخل الجماعة ..... لم تكن من أجل دعوة بالستر يدعوها لهم الفقراء، ولكنها من أجل الانقضاض على كراسي البرلمان والتغلغل في المحليات..."(ص ٣٦٣-٣٦٥)

## إجابة متخيلة

وقد يرد بعضهم على ذلك بأن الرجل أيضًا هو الشغل الشاغل للمرأة تبحث عنه وتنتظر أن يتزوجها ويحقق لها ما تريد، وأن الازدواجية لو كانت حقيقية لانتهى الإسلام منذ زمان بعيد، كيف يتعامل المسلمون مع الحكومات المعادية التي تسجنهم أو تنكل بهم على مدار الأعوام الطوال؟ وإذا كانوا يقدّمون الخدمات وأعمال البر فلماذا لا تقلدهم الحكومات ورجال الأعمال؟ وهل الرغبة في الحكم والوصول إلى المجالس النيابية والوظائف العليا لا تليق بالمسلمين وهم يملكون العلم والمعرفة؟ هذا ما أتخيله في رد بعضهم.. ولكن لعل هناك إجابات أفضل.

نرى مهشيد في السجن تقول:

"بقيت خلف القضبان لخمسة أعوام، لا أعلم التهمة التي سجنت بسببها، ولم يكن مصرحًا لنا بالسؤال أو التذمّر.." (ص ٤١١)

ولكنها لا تتساءل عن الحرية والعدالة وحكم الدستور والقانون في بلد من أعرق بلدان الأرض وجودًا إن لم يكن أعرقها جميعًا، بل إنها لا تستنكر الزجّ بها في السجن دون تهمة حقيقية أو سبب مقنع؟

إنها تقف موقفًا مواليًا صريحًا للنظام الشمولي، وتبرر الفساد بانحراف الحاشية!

فهي مثلًا تمدح "مبارك" وتعدّه رجلًا عسكريًا محترمًا، ولكن فساد حاشيته هو سبب البلاء.(ص ٤١٨) هل كان شخشيخة في أيدي الحاشية؟

إن مهشيد لا تعنيها قضية الحرية، ولا مواجهة الاستبداد الحقيقي، ولكنها معنية بنشر خطاب الكراهية والتشويه والتشهير والإقصاء، وهو ما يجعل النص السردي منشورًا دعائيًا رديئًا؛ لأنه يفتقد أبسط قواعد المنطق.

## حياة حرة

أما أيسل ابنة مهشيد فقد تربت بعيدًا عن أمها وهي في السجن، تخرّجت في كلية الهندسة بتقدير ممتاز، ورفضت التعيين معيدة في الكلية، لديها أفكار للتوسع في بناء مساكن للغلابة، تعيش حياة حرة في اللبس والسلوك، وترفض الزواج والفساتين وترى أمها نمطًا قديمًا، يحد من حريتها وانطلاقها، وترى الصندوق الذي ورثته أمها عن جداتها السابقات نوعًا من الخزعبلات، وهي ليست محتاجة إليه لتبحث عن حريتها وحين يأتي ذكر أبيها وموعد خروجه من السجن تقول بنبرة غاضبة:

" أبويا مين ؟ تاني يا مامي .. تاني.. ليه مصممة تجيبي سيرته؟ ده راجل قتّال قتلة وعضو في جماعة إرهابية .. اتجوزتيه الله أعلم ليه؟ يمكن كان قدري علشان يبقى أبويا.. ما يشرفنيش يبقى أبويا ولا عايزة أعرفه لما يخرج.. يا مامي لولا صورك معاه ما كنتش عرفته لو شفته في الشارع.. ماليش معاه أي ذكرى ولا عايزة يكون لي.."(ص ٤١٧). هل هذا أمر طبيعي؟ كل ابن أو ابنة يبحث عن أبيه ويشتاق إلى معرفته ولو كان شيطانًا رجيمًا؛ لأن الغريزة تفرض ذلك، ولكن رؤية بعض النساء مختلفة.

ترى أيسل أن الحرية هي عدم الخوف وعدم البقاء في دائرة محدودة، أن تكون حرة في كل شيء، وأدركت الأم أن ابنتها حلت ضفائرها وكسرت القيود التي كان الأهل يكبلون بناتهن بها خشية المعتقدات التقاليد، وخوفًا عليهن من قسوة الواقع ومرارة التجربة.. إنها في نظر الأم تمثل جيلًا لا يملك الحب ولا الدين ولا الوطن(ص٤٢١)

تهتم أيسل بالأدب والشعر، وتحضر الندوات وأمسيات الأدب، وتتعرف على مجموعة من الشباب من جنسيات مختلفة عربية وأجنبية، وتدعي إلى مؤتمرات في السويد وغيرها التي تناقش قضايا المرأة والأقليات وتصل إلى حد المشاركة في المظاهرات العارية لجماعة فيمن، وتشجعها على ذلك صديقة من تونس اسمها مليكة؛ قتل النظام أباها وتعيش مع أحد أصدقائها في علاقة غير شرعية.

## مراكب الهجرة

تحظى أيسل بمقابل مادي محترم نظير مشاركاتها في نشاطات حقوقية واجتماعية، عن طريق صديقها هاشم المحمدي(نصفه سوري والآخر مصري)، وهو يشارك المجموعة أو المنظمة أنشطتها الأدبية والحقوقية، وترتبط معه بعلاقة غير شرعية مع أنه متزوج وله أولاد، وتنجب منه بنتًا فيتخلى عنها ويهرب، وتزعم أن الجماعة تطاردها لأخذ البنت فتسعى للهرب بها إلى الخارج عن طريق مراكب الهجرة غير الشرعية، ولكنها تغرق بعد أن سلمت أحد المهاجرين جواز السفر والطفلة التي سمّتها "رحيل"، فيذهب بعد نجاته إلى مهشيد ويسلمها الحفيدة التي تقوم على تربيتها، وتسلّمها صندوق الجدة قمر لتواصل النضال!

## -٦-
# إبراز المظلومية

تصف الرواية الحياة المملوكية ونظامها إلى حد ما، وتورد الألقاب والوظائف العديدة والمسميات المختلفة التي كانت سائدة في القصور المملوكية والواقع الاجتماعي يومئذ، من قبيل الجاشنكير، القهرمانة والداودار، الأسطى دار، الزمام دار، الأمير أخور، الراخور، الركاب خانة، ضامنة المغاني، الكاميلية..

كما تحاول وصف حال المرأة وفقًا لتصورات نسائها فتبرز مظلوميتها المدعاة، ونضالها المزعوم في سياق لغوي فصيح لا بأس به أحيانًا، وسط ركام من العامية الهابطة البليدة التي لا تحمل وهجًا ولا نضارة، ولا تنتمي لسياق شعبي أصيل، فتقول من خلال اللعب ببعض التقابلات والتجانسات:

" كان وقوعنا في الحب سببًا (أبديًا) لبقائنا خلف أسوار القهر طويلًا، وكان وقوعنا في الحب سببًا دائمًا لبحثنا عن شق في الحيطان يتسرب منه إلينا شعاع أمل أو طريق للحرية.

كنا نساء نبحث عن دورنا، أو نساء بحثت عنا أدوارنا.. ووصلنا ليقين أن البحث عن الأشياء يجعل منا رحّالة في دنيا الغيب، وتبقى الحقيقة الأكيدة وهي أن أدوارنا وأقدارنا تظل تبحث عنّا حتى تجدنا هي قبل أن نجدها نحن.

لكل منا قصة ، قصة بقيت منها عِبرة.. أو قصة سقطت تحت أقدامها عَبرة، قصة رويت لنا وقصة رويناها.. قصة حكت عنّا وقصة حكيناها.. لم يتبق منها سوى أطلال لطريق مشيناه...

وعلى الرغم من كل المكاسب وكل الخسائر.. بقيت هي الفائز الوحيد..“( الرواية، ص١٦)

ومع ذلك فالرواية تقع في بعض الأخطاء السردية حين تشير مثلًا إلى معرفة الحمل من خلال تحليل الدم أو صورته، بينما المشهور أنه يظهر من خلال البول، أو حين لا تفرق بين الشعر الأسود والشعر الكستنائي المائل للحمرة الداكنة، حيث تصف شعر مهشيد مرة بالأسود، وأخرى بالكستنائي..

## الشعر.. والقتل

ويتضمن السرد بعض مقتبسات الشعر القديم، وقد يأتي الاقتباس مقبولًا وبعضه غير ذلك، فهي مثلًا تقتبس أبياتًا لجلال الدين الرومي:

يا حبيبي ذبت فيك ما انتهيتُ قلت فيك ما اكتفيتُ
أين أنت يا حبيبيها ؟ دموعي ها ضلوعي فاقتلعها
لن يراني غير حب قد كواني يا حبيبي عبدك المكلوم قلبي
فاصطفيه عبدَ نور من سراج نورِ ربي (ص ٢٠٦)

وهذه الأبيات الصوفية التي تذوب حبًا في الخالق - سبحانه - لا تستقيم فيما أتصور مع القتل الذي تدعو إليه الست قمر لتصل إلى حبيبها؟

هناك مقتبسات من الأغاني المفضلة للساردة منها أبيات لمحمود حسن إسماعيل عن النيل في قصيدته الشهيرة ”مسافرٌ زاده الخيالُ“:

شابت على أرضه الليالي وضيعت عمره الجبالُ
ولم يزل ينشد الديـــــارا ويسأل الليل والنهـــارا ( تكتبها من دون ألف مد وتكتفي بالفتحة)
والناس في حبه سكارى هاموا في شطه الرحيبِ

آه .. على سرك الرهيب وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيومِ
كما تقتبس بعض الأبيات الأخرى لتتناغم مع بحثها عن الحب، من قبيل:
يا فتىً قلتُ إذا دعاني هواه مستجيبًا لصوته لبيكا
ما بكتْ مقْلتيّ لفقدكَ إلا .. جزعًا أن أموتَ شوقا إليكا
أو تقتبس بعض أبيات قديمة :
ما كنت إلا حلمًا رأته عيني في الوسنِ
يا سمح الفعل ويا أحسن من كل حسنِ
والطريف أن الدكتور صلاح فضل الذي يشيد بالرواية ويعدّها تحريرًا لجواري العشق، ينسب هذه الأبيات إلى الكاتبة ويزعم أنها تتصدى لتكتب أبياتها الخاصة وتتغنى بها، في حين أن الأبيات سبقت عصر المماليك والعصر الحديث جميعًا، وكانت تكتب على عصائب الجواري وقلنسواتهن، ووردت في كتاب الموشى الظرف والظرفاء، لمؤلفه: محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى، أبو الطيب، المعروف بالوشاء، المتوفى سنة ٣٢٥هـ، وقد حققه: كمال مصطفى، ونشرته: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٣٧١ هـ = ١٩٥٣ م (ص ٧٨)

## الجدة الكبيرة البعيدة

يبقى أن نشير إلى أن الحوار وخاصة فيما يتعلق بالجزء المعاصر من النص السردي يبدو في مجمله تقطيعًا لمنشور الكراهية العنصري الدعائي الذي تكتبه الساردة، فضلًا عن صياغته بالعامية الهابطة، وسأكتفي هنا بمثال من حوار يجري بين مهشيد وأمها عن قمر المملوكية، تقول الأم:
" يا حبيبتي أولًا هي مش جدتي الكبيرة على أد ما هي جدتي البعيدة..

البعيدة قوي.. وبعدين أنا ساعة ما كلمتك عن الموضوع ده، كنتي صغيرة جدًا، والنهار ده أقدر أشرح لك وتفهميني.. أنا طبعًا ما شفتش السلطانة قمر دي، وعلى فكرة دي بقت في النهاية سلطانة البلاد أيام المماليك، وعرفت توصل لحلم كبير حلمته؛ لأنها أصرت ترفض القهر والظلم، وأصرت إن ما حدش يقهرها ولا يفرض عليها وضع مش عاجبها.. وأجبرت حبيبها كمان إنه يقف في وش سلطان من سلاطين المماليك ويدافع عن حبيبته ويدافع عن أهل البلد من ظلمه.. والصندوق ده بقى كانت بتحلم يبقى هدية لكل بنات سلالتها علشان يخبو فيه أحلامهم.. الصندوق مش شيء على أد ما هو رمز؛ لأنه كان مكان بتخبي فيه أسرار مع حبيبها، وكان تقدري تقولي كده ورق البردي اللي كتبت عليه حكايتهم بدل ما تكتبه على ورق.. وعلشان كده كل واحدة وصلها الصندوق ده، قررت إنها تكتب هيه كمان قصتها أو أحلامها أو أشعارها وتديه لبنتها لما ييجي عليها الدور وتبقى قادرة تحفظه وتحافظ عليه.. وأنا النهار ده يا مهشيد باعمل معاكي نفس اللي عملته أمي معايا.. يا حبيبتي لازم يبقى عندك حلم ولازم تتعبي علشان تحقيقه، وتتمسكي بيه.. اقري جوابات قمر لحبيبها.. واقري أشعارها، والمسي العقد اللي كانت واخداه من مامتها وشمّي ريحة المنديل المشغول بتاعها.. ساعتها حتحسي إنك بتشمّي ريحة مصر على مر آلاف السنين.. فهماني يا مهشيد؟! " ( ص ٢١٩)

## ترجمة العامية

ويبدو هذا الكلام غير متناسق مع السرد الفصيح، فهو عامية ركيكة وسخيفة في صياغة لا تتناسب مع أدب رفيع فيما يفترض، ولهذا فإننا لو ترجمناه إلى العربية الفصحى لحدث التناسب والتناسق، و فهم عنا العرب

في كل مكان ما نسرده عليهم، وقبل ذلك تخلصنا من الركاكة والتقعر والضعف التعبيري، وهأنذا أقوم بمحاولة متواضعة لترجمة ما ورد في هذا الحوار البائس إلى العربية الفصحى:

" حبيبتي! هذه ليست جدتي الكبيرة بقدر ما هي جدتي البعيدة.. البعيدة جدا .. عندما حدثتك عن هذا الموضوع، كنت صغيرة لا تدركين ما أقول، الآن أستطيع أن أشرح لك وتفهميني.. بالطبع لم أر السلطانة قمر، التي صارت في نهاية الأمر سلطانة البلاد أيام المماليك، وعرفتْ كيف تصلُ إلى الحلم الكبير الذي خططتْ له؛ لأنها أصرتْ أن ترفض القهر والظلم، وقررتْ ألا يقهرها أحد أو يفرض عليها وضعًا لا تريده.. كما أجبرت حبيبها أن يقف في وجه سلطان من سلاطين المماليك ويدافع عنها بوصفها حبيبته، ويدفع ظلمه عن أهل البلد..

كانت قمر تحلم أن يبقى هذا الصندوق هدية لكل بنات سلالتها ليخبئن فيه أحلامهن.. إن الصندوق ليس شيئًا مهما بذاته بقدر ما هو رمز.. ؛ لأنه المكان الذي تخبئ فيه أسرارها مع حبيبها، التي كتبتها على ورق البردي بدلًا من الكتابة على الورق العادي.. ولهذا فإن كل واحدة من السلالة يصلها الصندوق تكتب فيه قصتها أو أحلامها أو أشعارها أيضًا، وتسلمه لابنتها عندما يأتي دورها وتكون قادرة على المحافظة عليه.. إني أقوم بالدور نفسه الذي قامت به أمي معك يا مهشيد.. حبيبتي لابد أن يكون لديك حلم تجاهدين لتحقيقه ، والتمسك به.. اقرئي رسائل قمر لحبيبها.. واقرئي أشعارها، والمسي العقد الذي حصلت عليه من أمها وشمي رائحة منديلها المشغول.. لحظتها ستشعرين أنك تشمين رائحة مصر من آلاف السنين.. أتفهمينني يا مهشيد؟! ".

أظن أن الترجمة سهلة وبسيطة وتوضح ما تريد الأم أن تبلغه إلى ابنتها، دون النظر إلى مضمون الكلام ومدى ملاءمته للفكر والمنطق والحقائق.

وبعد..

فهذا النص السردي لا ينهض بقضية المرأة الحقيقية التي لا تنفصل عن قضية الرجل ومحنة الوطن، وهي لا تضيء جانبًا إنسانيًا واقعيًا يؤسس لمستقبل مشرق، وحياة أفضل، ثم إنه يفتقد عناصر الفن الروائي التي تضيفه إلى الإنجاز الأدبي الحديث، ولا أظن الدعاية له تغني عنه شيئًا، أو تصنع له مكانة لا يستحقها، فالكتابة حين تتخلى عن روح الإنسانية، وتتشح بالكراهية وتتوسل بالعنصرية، فلا مكان لها بين تراث الأدب الرفيع!